بحر الخزر

وأمَّا بحر الخزر فإنَّ شرقيَّه بعض الديلم، وطبرستان وجرجان وبعض المفازة الَّتي بين جرجان وخوارزم، وغربيَّه أرَّان وحدود السرير وبلاد الخزر وبعض مفازة الغُزِّيَّة، وشماليَّه مفازة الغُزِّيَّه بناحية سِيَاكُوه، وجنوبيُّه الجيل والديلم.

وهذا البحر ليس له اتِّصال بشيء من البحار على وجه الأرض، فلو أنَّ رجلاً طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الَّذي ابتدأ منه، لا يمنعه مانع إلاَّ نهر عذب يقع فيه وهو بحر مالح ولا مدَّ له ولا جزر، وهو بحر مُظْلِم قعره طين بخلاف بحر القلزم وسائر بحر فارس، فإنَّ في بعض المواضع من بحر فارس ربَّما يرى عمقه لصفاء ما تحته من الحجارة البيض، ولا يرتفع من هذا البحر شيءٌ من الجواهر من لؤلؤ أو مرجان أو غيره ممَّا يرتفع من البحار، ولا يُنتفع بشيءٍ ممَّا يخرج منه سوى السمك، ويركب فيه التجَّار من أراضي المسلمين إلى أراضي الخزر وما بين الران والجيل وطبرستان وجرجان، وليس في هذا البحر جزيرة مسكونة فيها عمارة كما ذكرنا في بحر فارس والروم، إلاَّ أنَّ فيها جزائر فيها غياض ومياه وأشجار، وليس بها أنيس، ومنها جزيرة سِيَاكُوه، وهي جزيرة كبيرة بها عيون وأشجار وغياض وبها دوابُّ وحش، ومنها جزيرة بحذاء الكُرّ وهي كبيرة بها غياض وأشجار ومياه، ويرتفع منها الفُوَّة ويُخْرَج إليها من نواحي بَرْذَعَة فيحملون منها الفُوَّة ويحملون السفن إليها دوابَّ من نواحي برذعة وسائر المواضع فتُسْرَحُ فيها حتَّى تسمن.

وليس من آبَسْكُون إلى الخزر -عن اليمين عن شطِّ البحر- قرية ولا مدينة سوى موضع من آبسكون على نحو خمسين فرسخًا يسمَّى دِهِسْتان، وهي

دخلة في البحر، تستتر فيها السفن في هيجان البحار، ويقصد هذا الموضع خلق كثير من النواحي ويقيمون بها للصيد وبها مياه، ولا أعلم غير هذا المكان مكانًا يقيم به أحد إلاَّ أن يكون سياكوه، فإنَّه تقيم به طائفة من الأتراك وهم قريبو العهد بالمقام به؛ لاختلافٍ وقع بين الغُزّيَّة وبينهم فانقطعوا عنهم واتَّخذوه مأوى ومرعى ولهم عيون ومراعٍ، هذا ما عن يمين هذا البحر من آبسكون، ومن آبسكون عن يسارها إلى الخزر في عمارة متَّصلة إلاَّ شيئًا بين باب الأبواب والخزر، وذلك أنك إذا أخذتَ من آبسكون مضيتَ على حدود جرجان وطبرستان والديلم والجيل، ثمَّ تدخل في حدود الرَّان، وإذا جزتَ مُوقان إلى باب الأبواب على يومين فهو بلد شَرْوَان شاه ثمَّ تتجاوزه إلى سَمَنْدَر أربعة أيَّام ومن سمَندر إلى إثل سبعة أيَّام مفاوز، ولهذا البحر بناحية سياكوه زنقة يخاف على السفن الداخلة بها الريحُ أن تنكسر وإذا انكسرت السفن هناك لم يتهيَّأ جمع شيء منها من الأتراك فإنَّهم يستولون على ذلك.

وأمَّا الخزر فإنَّهُ اسم الإقليم وقصبته تسمَّى إثل، وإثل اسم النهر الذَّي يجري إليه من الرُّوس وبُلْغار، وإثل قطعتان: قطعَة على غربيّ هذا النهر المسمَّى إثل وهي أكبرهما، وقطعة على شرقيّه، والمَلِكُ يسكن في الغربيّ منهما ويسمّى الملك بلسانهم: بك ويسمَّى أيضًا: باك، وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور إلاَّ أنَّه مفترش البناءِ، وأبنيتهم خركاهات لبود إلاَّ شيئًا يسيرًا بُني من طين، ولهم أسواق وحمَّامات وفيه خلق من المسلمين يقال: إنَّهُم يزيدون على عشرة آلاف مسلم، ولهم نحو ثلاثين مسجدًا وقصر الملك بعيد من شطّ النهر، وقصره من آجُرْ وليس لأحد بناءٌ من آجُرّ غيره، ولا يسوّغ الملك لأحد أن يبني بالآجُرّ، ولهذا السور أبواب أربعة منها إلى ما يلي النهر ومنها إلى ما يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة، وملكهم يهوديٌّ يقال: إنَّ له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل.

والخزر: مسلمون ونصارى ويهود، وفيهم عبدة أوثان وأقلُّ الفِرَق اليهود وأكثرهم المسلمون والنصارى، إلاَّ أنَّ الملك وخاصَّتُه يهود والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم، وأحكام خصُّوا بها على رسوم قديمة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى، وللملك من الجيش إثنا عشر ألف رجل، وإذا مات منهم رجل أُقيم آخر مكانه، وليست له جراية دارَّة إلا شيءٌ نزر يسير يصل إليهم في المدَّة الطويلة إذا كان له حرب أو حزبهم أمر يجتمعون له، وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارات على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر، ولهم وظائف على أهل المحالّ والنواحي من كلِّ صنف ممَّا يُحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك، وللملك سبعة من الحُكَّام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان، إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه وإنَّما يصل إلى هؤلاء الحُكَّام، وبيَّن هؤلاء الحُكَّام يومَ القضاء، وبيَّن الملك سفير يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليه فَيرِد عليهم أمره ويمضونه.

وليس لهذه المدينة قرى إلاَّ أنَّ مزراعهم مفترشة يخرجون في الصيف في الزروع نحو عشرين فرسخًا ليزرعوا ويجمعوا بعضه على النهر وبعضه على الصحارى، فينقلون غلاَّتهم بالعجل في النهر، والغالب على قوتهم الأرزُّ والسمك، وهذا الَّذي يُحمل منهم من العسل والشمع، إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار وكذلك هذه الجلود الخزّ التي تحمل إلى الآفاق، لا تكون إلاَّ في تلك الأنهار الَّتي بناحية بلغار، والروس، وكُويَابَة، ولا تكون في شيء من الأقاليم فيما علمتُهُ، والنصف الشرقيُّ من الخَزَر فيه معظم التُّجار، والمسلمين، والمتاجر، والغربيُّ خالصةٌ للملك وجنده والخزر الخُلَّص، ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسيَّة ولا يشاركه لسان فريق من الأمم.

وأمَّا نهر إتل فإنَّهُ فيما بلغني يخرج من قرب خِزْخِيز، فيجري فيما بين الكَيْماكيَّة والغُزّيَّة، وهو الحدُّ بين الكيماكيَّة والغُزّيَّة، ثمَّ يذهب غربًا على ظهر بُلْغار ويعود راجعًا إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس، ثم يمر على بلغار، ثمَّ على بُرْطاس، حتَّى يقع في بحر الخَزَر، ويقال: إنَّه يتشَعَّب من هذا النهر نيِّف وسبعون نهرًا، ويبقى عمود النهر يجري على الخَزَر حتَّى يقع في البحر، ويقال: إنَّ هذه المياه إذا كانت مجموعة في نهر واحد أعلاه يزيد على جَيْحون، وبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنَّها تنتهي إلى البحر فتجري في البحر داخلاً مسيرة يومين وتغلب على ماء البحر حتَّى يجمد في الشِّتاء؛ لعذوبته وحلاوته ويبين في البحر لونه من لون ماءِ البحر، وللخزر مدينة تسمَّى سَمَنْدَر فيما بينها وبين باب الأبواب، لها بساتين كثيرة يقال: إنَّها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حدِّ السرير، والغالب على ثمارها الأعناب، وفيها خلق من المسلمين ولهم بها مساجد، وأبنيتهم من خشب قد نسجت، وسطوحهم مسنَّمة وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر، وبينهم وبين حدِّ السرير فرسخان وبينهم وبين صاحب السرير هدنة.

والسَّرير هم نصارى ويقال: إنَّ هذا السرير هو لبعض ملوك الفرس من ذهب، فلمَّا زال ملكهم حمل إلى السرير، وحمله بعض ملوك الفرس. بلغني أنَّه من أولاد بَهْرَام جُوبين، والملك إلى يومنا هذا فيهم ويقال: إنَّ هذا السرير عُمِل لبعض الأكاسرة في سنين كثيرة، وبين السرير وبين المسلمين هدنة، ولا أعلم في عمل الخزر مَجْمَع ناس سوى سَمَنْدرن وبُرْطاس هم أُمَّة متاخمون للخزر ليس بينهم وبين الخزر أمَّة أخرى، وهم قوم مفترشون على وادي إتل، وبرطاس اسم الناحية، وكذلك الروس والخزر والسرير اسم للمملكة لا للمدينة ولا للناس.

والخَزَر لا يشبهون الأتراك، وهم سود الشعر، وهم صنفان: صنف يسمَّون قراخزر، وهم سمر يضربون لشدَّة السمرة إلى السواد، كأنَّهم صنف من الهند، وصنف بيضٌ ظاهرو الحسن والجمال، والَّذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان الَّذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضًا، فأمَّا اليهود منهم والنصارى فإنَّها تدين بتحريم استرقاق بعضهم بعضًا مثل المسلمين، وبلد الخزر لا يرتفع شيءٌ منه يحمل إلى الآفاق غير الغِرَى، وأمَّا الزيبق والعسل، والشمع، والخزّ، والأوبار، فمجلوب إليها، ولباس الخزر وما حواليها القراطق والأقبية، وليس يكون عندهم شيءٌ من الملبوس، وإنَّما يحمل إليهم من نواحي جرجان، وطبرستان، وأرمينية، وأذربيجان، والروم، وأمَّا سياستهم وأمر المملكة بهم فإنَّ عظيمهم يسمَّى خاقان خَزَر، وهو أجلُّ من ملك الخزر، إلاَّ أنَّ ملك الخزر هو الَّذي يقيمه، وإذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاءُوا به فيخنقونه بحريرة حتَّى إذا قارب أن ينقطع نفَسه قالوا له: كم تشتهي مدَّة الملك فيقول: كذا وكذا سنة. فإن مات دونها وإلا قُتِل إذا بلغ تلك السنة، ولا تصلح الخاقانيَّة عندهم إلاَّ في أهل بيت معروفين، وليس له من الأمر والنهي شيءٌ إلاَّ أنَّهُ يعظَّم ويسجد له إذا دُخِل إليه، ولا يصل إليه أحد إلاَّ نفر يسير مثل الملك ومَن في طبقته، ولا يدخل عليه الملك إلاَّ لحادِثَة فإذا دخل عليه تمرَّغ في التراب وسجد وقام من بُعْد حتَّى يأذن له بالتقرُّب، وإذا حزبهم حَزْب عظيم أُخرج فيه خاقان فلا يراه أحد من الأتراك ومَنْ يصاقبهم من أصناف الكفر إلاَّ انصرف ولم يقاتله تعظيمًا له، وإذا مات ودُفِن لم يمرّ بقبره أحد إلا ترجَّل وسجد، ولا يركب ما لم يَغِبْ عن قبره، ويبلغ من طاعتهم لملكهم أنَّ أحدهم ربَّما يجب عليه القتل ويكون من كبرائهم فلا يحبُّ الملك أن يقتله ظاهرًا، فيأمره أن يقتل نفسه فينصرف إلى منزله ويقتل نفسه، والخاقانيَّة في قوم معروفين ليس لهم مملكة ويسار، فإذا انتهت الرياسة إلى أحدهم عقدوا له ولم ينظروا إلى ما عليه حاله، ولقد أخبرني من أَثِقُ به أنَّه رأى

في بعض أسواقهم شابًّا يبيع الخبز، وكانوا يقولون: إنَّ خاقانهم إذا مات فليس أحد أحقَّ منه بالخاقانيَّة إلاَّ أنَّه كان مسلمًا ولا تعقد الخاقانيَّة إلاَّ لمن يدين باليهوديَّة والسرير، والقبَّة الذهب الَّتي لهم لا تضرب إلاَّ لخاقان ومضاربه إذا برَّزوا فوق مضارب الملك ومسكنه في البلد أرفع من منزل مسكن الملك.

وبُرْطاس اسم للناحية وهم أصحاب بيوت خشب، وهم مفترشون، وبَسْجِرتْ هم صنفان صنف في آخر الغُزِّيَّة على ظهر بلغار، ويقال: إنَّ مبلغهم نحو ألفيّ رجل ممتنعون في مشاجر، لا يُقدر عليهم وهم في طاعة بلغار، وبسجرت آخر هم متاخمون لبجناك، وهم وبجناك أتراك وهم متاخمون للروم، ولسان بلغار مثل لسان الخزر، ولبرطاس لسان آخر، وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس، وبُلْغار اسم المدينة وهم مسلمون وفيها مسجد جامع وبقرب مدينة أخرى تسمَّى سُوار فيها أيضًا مسجد جامع وأخبرني من كان يخطب بها أنَّ مقدار عدد الناس بهاتين المدينتين نحو عشرة آلاف رجل ولهم أبنية خشب يأوونها في الشتاءِ، وفي الصيف يتفرشون في الخركاهات، وأخبرني الخاطب بها أنَّ الليل عندهم لا يتهيَّأ أن يسير فيه الإنسان أكثر من فرسخ، وفي الصيف وفي الشتاء يقصر النهار ويطول الليل حتَّى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف.

والرُّوس هم ثلاثة أصناف: فصنف هم أقرب إلى بلغار، وملكهم يقيم بمدينة تسمَّى كُويابَى وهي أكبر من بلغار، وصنف أبعد منهم يسمُّونه الصَّلاويَة، وصنف يسمَّون الأَرْثانيَة وملكهم مقيم بأَرْثا، والناس يبلغون في التجارة إلى كويابة، فأمَّا أرثا فإنَّه لا يُذكر أنَّ أحدًا دخلها من الغرباء؛ لأنَّهم يقتلون كلَّ من وطئَ أرضهم من الغرباء، وإنَّما ينحدرون في الماء يتجرون فلا يُخْبَرون بشيءٍ من أمورهم ومتاجرهم ولا يتركون أحدًا يصحبهم ولا يدخل

بلادهم، ويحمل من أرثا السمُّور الأسود والرصاص.

والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا وتحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهنَّ، وبعضهم يحلق اللحى وبعضهم يفتله مثل الذوائب، ولباسهم القراطق القصار، ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامَّة، وهؤلاء الروس يتَّجرون إلى الخزر ويتَّجرون إلى الروم وبلغار الأعظم، وهم متاخمون للروم في شماليَّها، وهم عدد كثير يبلغ من قوَّتهم أنَّهم ضربوا خراجًا على ما يلي بلادهم من الروم، وبلغار الداخل هم نصارى.

المسافات بين بلاد بحر الخزر ونواحيها من آبَسْكُون إلى بلاد الخزر عن اليمين نحو ٣٠٠ فرسخ، ومن آبسكون عن يسار السائر إلى الخزر نحو ٣٠٠ فرسخ، ومن آبسكون إلى دِهِسْتان ٦ مراحل، ويُقْطع هذا البحر إذا طابت الريح عرضًا من طبرستان إلى باب الأبواب في أسبوع، وأمَّا من آبسكون إلى بلاد الخزر فإنَّهُ زائد على العرض؛ لأنَّه مزوِّي، ومن إثل إلى سمندر ٨ أيَّام ومن سمندر إلى باب الأبواب ٤ أيام، وبين مملكة السرير وباب الأبواب ٣ أيَّام، ومن إثل إلى أوَّل حدِّ برطاس مسيرة ٢٠ يومًا، ومن أوَّل برطاس إلى آخره نحو ١٥ يومًا، ومن برطاس إلى بجناك نحو ١٠ مراحل، ومن إثل إلى بجناك مسيرة شهر، ومن إثل إلى بلغار على طريق المفازة نحو شهر، وفي الماءِ نحو شهرين في الصعود وفي الحدور نحو ٢٠ يومًا، ومن بلغار إلى أوَّل حدِّ الروم نحو ١٠ مراحل، ومن بلغار إلى كويابة نحو ٢٠ مرحلة، ومن بجناك إلى بسجرت الداخل ١٠ أيام، ومن بسجرت إلى بلغار ٢٥ مرحلة.